حملة مصطفى باشا النشار على اليمن ٩٥٨هـ/ ١٥٥١م
(مقومات النجاح وأسباب الفشل)

أ.ماجد يحيى مجاهد لعجه*

المستخلص:

تختلف حملة مصطفى باشا النشار عن غيرها من الحملات العثمانية التي تم إرسالها إلى اليمن خلال القرن السادس عشر، في أنها جاءت إلى اليمن لتعزيز السيطرة العثمانية التي كانت قد أخذت في التوسع أيام فترة الولاة السابقين لها، أي بمعنى حفظ المكاسب والنجاحات العثمانية وتعزيزها، على خلاف الحملات الأخرى التي كانت تُرسل لغرض استعادة السيطرة العثمانية بعد الشعور بتدهورها، وخوفا من مألات خروج اليمن من قبضة الدولة العثمانية. يتناول البحث حملة مصطفى باشا النشار إلى اليمن ٩٥٨هـ/١٥٥١م، من خلال الحديث عن مراحلها وعددها وعتادها، ثم أثرها في تعزيز الحكم العثماني في اليمن من عدمه، مسلطا الضوء على مقومات نجاح الحملة ونقاط قوتها، ومختتما بمائلات وأسباب إخفاقها عن تحقيق أهدافها، وكيفية تحول المقومات الضخمة التي جاءت بها إلى عوائق تسببت في صراع عثماني عثماني في ولاية اليمن.

كلمات مفتاحية: مصطفى باشا النشار- اليمن- العثمانيين- القرن السادس عشر.

مقدمة

لا شك أن حملة مصطفى باشا النشار كانت واحده من اهم الحملات العثمانية التي تم إرسالها إلى اليمن في فترة الحكم العثماني الأول(١٥٣٨-١٦٣٥م)، وقد تباينت وجهات نظر المؤرخين بين نجاحها وفشلها في تحقيق ما رسم لها سلفا، فالبعض اعتبرها فشلت في تحقيق هدفها الرئيسي، لأنها ولّدت صراع عثماني داخلي - بين قائدها مصطفى باشا النشار وبين والي اليمن آنذاك اوزدمير باشا- افضى إلى تقوية المطهر بن شرف الدين، من خلال عقد صلح معه عام ١٥٥٢م، والذي بموجبه تنفس المطهر الصعداء بعد أن كان محاصر في معقلة الأخير في

* طالب دكتوراه - قسم التاريخ- جامعة ازمير كاتب تشلبي- ازمير- تركيا.

كوكبان. بينما البعض اعتبر أنها حققت أهدافها، مكتفين بالتعليق على دعم الحملة للوجود العثماني في اليمن ككل، خصوصا بعد خروج مصطفى باشا النشار من اليمن سنة ١٥٥٢م تاركا عسكر الحملة وعتادها لاوزدمير باشا.

وما يميز هذا الحملة عن غيرها من الحملات هو أنها جاءت إلى اليمن بمقومات ضخمة، كما جاءت إلى اليمن والعثمانيين يتمتعون بوضع جيد، فكان الوالي أزدمير باشا قد أسقط صنعاء عام ١٥٤٧م، واخذ يتوسع في مناطق اليمن الشمالية ويضمها للسيادة العثمانية منطقة تلو الأخرى. ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هذه الحملة جاءت لتعزيز ذلك التوسع، بعد أن طلب والي اليمن آنذاك اوزدمير باشا من السلطان العثماني مددا يستعين به على التحكم في الأراضي التي كانت قد دخلت حديثا تحت النفوذ العثماني خصوصا بعد سقوط صنعاء بيد العثمانيين. وأخيرا فمن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن المهتم والمتتبع لما ورد عن هذه الحملة، سيجد أن المصادر العربية والتركية على حد سواء لم تَجُد بالكثير من المعلومات عنها، وكذلك الحال بالنسبة للدراسات التاريخية المعاصرة.

مصطفى باشا النشار شخصيته وولايته على اليمن

هو مصطفى بك بن بيكلو محمد باشا أوغلو، وأبوه بيكلو محمد هو الذي فتح جنوب غرب الأناضول وديار بكر عن الصفويين[١]، شغل منصب أميرا أمراء ديار بكر، ثم نائبا على غزة قبل خروجه في حملة سليمان باشا الخادم إلى اليمن والهند سنة ١٥٣٨م[٢]. كما كان أحد الجنود في حملة السلطان سليم الأول على مصر سنة ١٥١٧م[٣]، واحد الذين اختاروا الإقامة بمصر بعد رجوع السلطان سليم منها إلى الأناضول بعد فتحها، وقد ترقى في الوظائف إلى أن صار كاشفا بمصر[٤]، ثم ولي بعد ذلك إمرة الحاج المصري لسنوات متتالية،

[١] يلماز اوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سلمان، إسطنبول، مؤسسة فيصل، ١٩٨٨، ج١، ص ٣٢٩.

[٢] بجوي، إبراهيم أفندي، التاريخ السياسي والعسكري للدولة العثمانية (المعروف بتاريخ بجوي)، ترجمة ناصر عبد الرحيم حسين، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ط١، ٢٠١٥م، ج١، ص٢٦٨. (الكتاب مترجم من الفارسية).

[٣] محروس، صالح، ولاية مصطفى باشا النشار على اليمن وأثارها ١٥٥١-١٥٥٨م، بحث مقدم إلى المؤتمر الدولي الأول عن اليمن في العهد العثماني الأول، جامعة أوشاك – تركيا، منشورات جامعة ٩ أيلول - ازمير- تركيا، ٢٠١٦م، ص ٣١٢.

[٤] خلوصي ياووز، الإدارة العثمانية في اليمن وتاريخ رموزي، مؤسسة التاريخ التركي للنشر، انقرة، ٢٠٠٣، ص٥٧. الكتاب باللغة التركية.

أطلق عليه لقب (نشار) لأنه كان في طريق الحج إذا وقع في يده سارق أو قاطع طريق ينشره نصفين كعقوبة على ما فعل[١].

تولى مصطفى باشا النشار ولاية اليمن لفترتين منفصلتين، الأولى في الفترة (١٥٤٠-١٥٤٥م)، وقد ولي فيها على زبيد وما يليها[٢]، وهو أول من أطلق عليه لقب باشا وبكلربكي في اليمن[٣]. وقد حاول خلال فترة ولايته هذه إصلاح أوضاع اليمن ما امكنه ذلك، واتخذ النظام العسكري والإداري في مصر العثمانية نموذجا له[٤]، ماعدا نظام الملكية الإقطاعية الصغيرة فانه لم يعمل به، وعهد بمهمة حفظ النظام في الأرياف إلى وحدات عسكرية محلية مشكله من الأهالي الأصليين[٥]. وبالرغم من أن الأحداث التي حدثت أثناء فترة ولاية مصطفى باشا النشار الأولى ١٥٤٠-١٥٤٥م لم تكن ذات مدى كبير، ولكنها كانت كفيلة بلفت انتباه الدولة العثمانية بأهمية بلاد اليمن، وانه يحتاج إلى اهتمام كبير كون الخطر محدق به من الداخل والخارج، وهذا ما دفع بالسلطان سليمان القانوني إلى تعيين أويس باشا واليا جديدا عليه، وأرساله في مجموعة كبيرة من الجنود والقادة العسكريين، حاملين معهم ترسانة ضخمة من الأسلحة الحديثة التي لم يكن يعرفها اليمنيين بعد. وكيفكما كان الأمر، فمن الممكن القول انه خلال فترة حكمه الأولى عم اليمن الهدوء النسبي، وخفت حدة الصراع نوعا

---

[١] النهروالي، قطب الدين محمد بن احمد ت ٩٩٠، غزوات الجراكسة والأتراك في جنوب الجزيرة العربية المسمى (البرق اليماني في الفتح العثماني)، الرياض، منشورات دار اليمامة، ط١، ١٩٦٧م، ص٩٤.

[٢] نيقولاي إيفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية ١٥١٦-١٥٧٤م، ترجمة: يوسف عطا الله، دار الفارابي للنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٨م، ص ١٣٣. النهروالي، مصدر سابق، ص ٩٤.

[٣] البكلربكلك (البكلربكية): كانت عبارة عن وحدة أداريه كبرى في السلطنة العثمانية، يحكمها بكلربكي (والي) ويتبعه سناجق، ثم أُستخدمت كلمة إيالة Eyalet بدلا منها لبعض الوحدات، وأخيرا حلت كلمة ولاية Vilayet محل الإثنين. أنظر: جانكارلوا كازالي، رياس البحر الهندي عصر الاستكشافات العثمانية، ترجمة: مصطفى قاسم، إصدارات عالم المعرفة، الكويت، أغسطس ٢٠١٨م، ص١٦٨.

[٤] منذ دخول العثمانيين اليمن سنة ١٥٣٨م كان جهاز الدولة المحلي فيها تابعا لمصر إداريا، وفي عام ١٥٤٥م فصلت كل سناجق اليمن عن مصر، وأعيد تنظيمها كولاية مستقلة أو بكلربكية، وكان ذلك جزء من إصلاحات الصدر الأعظم آنذاك رستم باشا التي استهدفت تعزيز سلطة الحكومة المركزية للدولة العثمانية. أنظر: جانكارلوا كازالي، رياس البحر الهندي عصر الاستكشافات العثمانية، مرجع سابق، ص١٦٨.

[٥] نيقولاي إيفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية، مرجع السابق، ص١٣٣.

ما بين العثمانيين وال شرف الدين، وقام ببعض الأعمال الحربية الصغيرة ضد البرتغاليين[١].

أما ولايته الثانية فقد كانت في الفترة ١٥٥٥-١٥٥٦م، وذلك بعد عزل اوزدمير باشا عنها، وتذكر المصادر أن اوزدمير باشا طلب عزله بعد أن بلغه أن مصطفى النشار يريد ولاية اليمن ويسعى لذلك لدى الباب العالي[٢]. وبما انه كان لدى السلطات العثمانية ميول إلى الحلول السلمية في اليمن نظرا للخسائر البشرية والمالية التي تكبدها العثمانيين في فترة الولاة السابقين خصوصا في فترة ولاية أويس باشا واوزدمير باشا، فقد وافقوا على طلب الباشا مصطفى بعد ادعاءاته بأنه أقدر على التعامل مع الوضع في اليمن بحكم خبرته السابقة فيه[٣]، لكن وفاته المفاجئة حالت دون تحقيق أي شيء يُذكر، فبعد وصوله إلى تعز اعتراه مرض، فقرر النزول إلى زبيد، وفيها توفى في العاشر من شعبان سنة ٩٦٣هـ/١٥٥٥م، أي في نفس السنة التي وصل فيها إلى اليمن[٤].

حملة مصطفى باشا النشار على اليمن (٩٥٨هـ/ ١٥٥١م)

أخذ الصراع العثماني الزيدي منذ دخول العثمانيين اليمن ألوان مختلفة ومتعددة من السلم والحرب[٥]، وكان كل طرف يحاول الاستفادة قدر الإمكان من من عثرات الأخر، فالعثمانيين استفادوا من الخلافات الداخلية التي كانت أحيانا ما تنشب بين أبناء شرف الدين ووظفوها لصالحهم، كما استفادوا من دعم

---

[١] يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد بن علي (تـ ١٦٨٩م)، غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ط١، ١٩٦٨م، ص ٦٨٨.

[٢] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق، ص ١١٨.

[٣] للمزيد انظر: - سالم، سيد مصطفى، الفتح العثماني الأول لليمن، القاهرة، دار الأمين، ط٥، ١٩٩٩، ص ٢١٠.

[٤] ألموزعي، شمس الدين عبد الصمد بن إسماعيل، دخول العثمانيين الأول إلى اليمن المسمى الإحسان في دخول مملكة اليمن تحت طل عدالة أل عثمان، تحقيق عبد الله محمد الحبشي، بيروت، منشورات المدينة، ط١، ١٩٨٦م، ص٣٣. (يذكر ابن داعر في مخطوطه الفتوحات المرادية في الجهات اليمانية، أن مصطفى باشا النشار توفى في الجند وحُمل ميتا إلى زبيد ودفن فيها في مدرسته المعروفة سنة ٩٦٤هـ. (ابن داعر، عبد الله بن صلاح الدين تـ١٠٠٧، الفتوحات المرادية في الجهات اليمانية، مخطوط محفوظ بمكتبة راغب باشا، إسطنبول، برقم ٩٧٩، ص٣٨٨.)

[٥] للمزيد عن الصراع العثماني الزيدي في اليمن انظر: ١-باش ترك، سعد الدين، الصراع الزيدي - العثماني في اليمن "الأسباب والنتائج"، مجلة أبحاث الشرق الأوسط، جامعة الفرات، العدد ١، المجلد ٤، الازيغ، ٢٠١٣م، الصفحات ١١-٢١. المقال باللغة التركية. ٢-الأكوع، القاضي إسماعيل بن علي، أسرار مقاومة اليمن للحكم العثماني، ورقة مقدمة إلى المؤتمر العالمي الرابع للدراسات العثمانية، زاغوان – تونس، ٢٦-٣٠ يناير ١٩٩٠م.

الطائفة الإسماعيلية التي كانت على عدم توافق مع الزيدية في كثير من الأحيان. أما أئمة الزيدية فهم الأخرون، كانوا دائما ما يستفيدوا من الخلافات والصراعات التي كانت تنشب بين القادة والأمراء العثمانيين.

كان السبب الرئيسي لحملة مصطفى باشا النشار على اليمن عام ١٥٥١م، هو طلب والي اليمن آنذاك اوزدمير باشا من السلطان العثماني سليمان القانوني إرسال مددا عسكري لضبط الأمور في اليمن، كون الجيش العثماني الذي كان متواجد في اليمن آنذاك قد توزع في الأقاليم المختلفة بعد توسع رقعة السيطرة العثمانية وفتح الكثير من المناطق أيام ولاية أويس باشا واوزدمير باشا، بالإضافة إلى تزايد خسائر العثمانيين البشرية والمادية نتيجة لحروبهم المستمرة مع المطهر بن شرف الدين[١].

أصدر السلطان سليمان القانوني فرمان إلى والي مصر آنذاك داوود باشا يقضي بتجهيز ٣٠٠٠ من المشاة و١٠٠٠ فارس مع أسلحتهم لإرسالهم إلى اليمن. وبحكم قرب مصطفى باشا النشار من داوود باشا، وخبرته باليمن وأحوالها -كونه كان والي سابق لها- عينه قائد للحملة، وسلمه الفرمان[٢] السلطاني، ورسالة خطية من السلطان العثماني إلى المطهر بن شرف الدين[٣]. ثم قام الباشا مصطفى بتجهيز العسكر وأرسلهم على دفعات إلى اليمن، بينما خرج هو من مصر أميرا للحاج المصري كعادته، وبعد أن أدى مناسك الحج سنة ٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م توجه إلى اليمن لأداء المهمة الموكلة إليه بعد أن كلف أحد الأمراء بالعودة بالحاج المصري. وقد وصل إلى اليمن في سنة٩٥٨هـ / ١٥٥١م[٤] بصلاحيات كبيرة من ضمنها حرية التفاوض المباشر مع المطهر دون الرجوع إلى اوزدمير باشا، الأمر الذي أدى إلى تصدع العلاقة بينهما، ليتطور الأمر إلى نشوب خلاف أفضى إلى فشلهم في تحقيق أهدافهم[٥].

---

[١] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق، ص ٢٠٠.

[٢] فرمان: لفظ فارسي معناه أمر أو حكم أو دستور موقع من الملك أو السلطان، أستعمله الأتراك في العصر العثماني بمعنى الأوامر السلطانية، أو ما يسمى في عصرنا بالمراسيم الملكية. الخطيب، مصطفى عبد الكريم، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٦م، ص٣٣٨.

[٣] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق، ص ١٠٧. ابن داعر، الفتوحات المرادية، مصدر سابق، ص ٣٨٤.

[٤] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق، ص ١٠٧.

[٥] الأمير، امة الغفور عبد الرحمن، خطاب السلطان سليمان القانوني إلى المطهر بن شرف الدين في اليمن ٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م وجواب المطهر، ورقة بحث مقدمة للمؤتمر الدولي (اليمن في العهد العثماني الأول) جامعة أوشاك تركيا، منشورات جامعة ٩ أيلول-ازمير-تركيا، ٢٠١٦م، ص١٣٦. سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق، ص ٢٠١.

كانت زبيد المحطة الأولى مصطفى باشا النشار ومنها انتقل إلى تعز، وفور وصوله تعز أرسل إلى المطهر بن شرف الدين برسالة السلطان سليمان القانوني التي سلمه إياها داوود باشا، وبعث معها برسالة منه شخصيا يطلب من المطهر إرسال جماعة من أصحابه ليودعهم ما أودعه السلطان، فأرسل المطهر إليه الأمير الحسين بن محمد من بني الهادي، والفقيه صلاح بن داعر، وأرسل معهم جوابه على خطاب السلطان سليمان القانوني، وجوابا أخر على خطاب الباشا مصطفى[١]. وقد استقبل الباشا رُسل المطهر بالإكرام والاحترام وسعى إلى حل الخلاف بالطرق السلمية لما من شأنه أن يؤدي إلى هدوء الاضطرابات، وأرسل مع رُسل المطهر رجل يُدعى الشيخ أحمد عثمان العمودي، لغرض التأكد من طاعة المطهر للسلطان العثماني من عدمها، لكن اوزدمير باشا حال دون ذلك ومنع العمودي من الوصول إلى المطهر، واعتبر ذلك تعدي على صلاحياته وعمل غير مرغوب فيه من قبل مصطفى باشا النشار[٢].

كان خطاب السلطان سليمان القانوني للمطهر[٣]على مستوى عالي من الدبلوماسية السياسية، فقد حمل في طياته المزج بين الترغيب الترهيب، فدعا من خلاله المطهر إلى طاعة الدولة العثمانية، وذكره بفضلها في دحر البرتغاليين الغزاة، كما أطلق على المطهر بعض الألقاب مثل "نسل السلالة الهاشمية – الشجرة الزكية"، ولعله قصد بذلك استمالته للجنوح والخضوع للطاعة دون الدخول في صراع مسلح معه، كما ذكّره بقوة وعظمة الدولة العثمانية وإمكانياتها العسكرية كنوع من أنوع الترهيب، واختتم خطابه بقوله" وان تكبرت واستأنفت أتيناك بجنود لا قبل لك بها وأخرجناك من حكمك ذليلا وأخذناك اخذ وبيلا"[٤]. أما جواب المطهر فهو الأخر، فقد كان رد سياسي بامتياز، عكس المستوى العالي من الحنكة السياسية التي يتمتع بها المطهر، ففي البداية بالغ في مدح السلطان، وأعترف في مضمون كتابه بالولاء والطاعة له، مشيرا إلى وجوب تحري الدقة في كل ما ينقل إليه من أخبار، كما حَمل عتاب على الولاة والجنود العثمانيين في اليمن لمحاربتهم له في مناطق نفوذه، وأبداء

[١] عاطف باشا، تاريخ اليمن، مطبوعات دار السعادة، إسطنبول، ١٣٢٦هـ، ج١، ص٥٩. (الكتاب باللغة العثمانية)

[٢] يحيى ابن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٧٠٨-٧٠٩.

[٣] للمزيد عن خطاب السلطان سليمان القانوني إلى المطهر وجواب المطهر عليه، انظر: الأمير، خطاب السلطان سليمان القانوني إلى المطهر بن شرف الدين في اليمن ٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م وجواب المطهر، مرجع سابق، ١٤٠-١٤٥.

[٤] الأمير، المرجع نفسه، ص ١٤٤.

استياءه من استخدام العثمانيين الأسلحة الحديثة ضد اليمنيين موضحا أن مواجهته للعثمانيين والتصدي لهم ليس إلا من باب الدفاع عن النفس[١].

وبالرغم من أن مصطفى باشا النشار حاول تجنب أي صدام مسلح مع المطهر، وجعل جُل اهتمامه الوصول إلى تحقيق أهدافه بالأمور السلمية، إلا أن أوزدمير باشا نحج في جره إلى الصدام مع المطهر، بعد أن تمكن من أقناعه أن الأخير لا يمسك وعدا ولا عهدا. وقد خرج الباشا مصطفى من تعز متجها نحو الشمال صوب صنعاء، والتقى مع الوالي اوزدمير باشا في ذمار، ليتجهوا بعد ذلك إلى صنعاء، ومنها خرجوا لمحاصرة المطهر في ثلا[٢] وكوكبان، فوصلوا إلى المنقب[٣] في محرم سنة ٩٥٩هـ / ديسمبر/يناير ١٥٥٢م[٤]، وتمكن العثمانيين بعد ذلك من حصار كوكبان وحصن ثلا المنيع، وحدثت مناوشات بين الفريقين قتل على أثرها عدد من جنود المطهر[٥]، لكنه سرعان ما نشب الخلاف بين القائدين العثمانيين بعد أن كانوا قد أشرفوا على اخذ الحصن، لينتهي الأمر بعقد صلح مع المطهر، وظهوره كند للعثمانيين بعد أن كان في وضع لا يحسد عليه[٦].

---

[١] الأمير، المرجع نفسه، ص١٤٥.

[٢] ثلا:- قديما كانت تنطق بضم الثاء وحاليا بكسرها، مدينة وحصن بالشمال الغربي من مدينة صنعاء يبعد عنها حوالي٤٥ كيلومتر، سميت نسبة إلى ثُلا بن لُباخة بن أقيان بن حمير، اشتهرت كمدينة للعلم والعلماء، يحتضن مدينة ثلا من جهة الغرب حصنها الشاهق الذي يبلغ ارتفاعه عن سطح البحر بحدود ٣٠٠٠ مترا، ويشتهر بمناعته وارتفاعه، ويتم الطلوع إليه عبر طريق مدرجة مبنية من الحجر أو منحوتة في اصل الجبل. اتخذه المطهر مقرا ومركزا له أثناء صراعه مع العثمانيين، فلم يستطيعوا الوصول إليه والسيطرة عليه بالقوة بالرغم من محاولاتهم الكثيرة والمستميتة. حاليا ثلا مديرية تتبع محافظة عمران، بعد أن كانت سابقا تابعه لمحافظة صنعاء. المقحفي، إبراهيم احمد، معجم البلدان والقبائل اليمنية، صنعاء، دار الكلمة، ٢٠٠٢م، ج١، ص٢٥٨-٢٥٩.

[٣] المنقب: بضم الميم وفتح النون وتشديد القاف، احدى القرى التابعة لمديرية همدان محافظة صنعاء، وهي بلدة في عرض جبل اسود أصم، وفي أسفل الجبل قاع فسيح يقال له (قاع المنقب) يمتد من شرقي مدينة شبام كوكبان إلى أسفل مدينة ثلا. المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، مرجع سابق، ج٢، ص١٦٦١.

[٤] يحي بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٧٠٨-٧٠٩.

[٥] يوجد وثيقة عثمانية محفوظة في الأرشيف العثماني تعود إلى ٢٧ رجب سنة ٩٥٩هـ الموافق ١٩ تموز/ يوليو١٥٥٢م تتحدث عن فتح مصطفى باشا لقلعة "تولة". ومن خلال سياق معلومات الوثيقة فأن المقصود بها "ثلا" أو أحد القلاع المحيطة بها كونها وصفت حصانه ومناعة القلعة والأسوار المحيطة بها وصفا لا يكاد ينطبق إلا على ثلا. كما تحتوي الوثيقة على التوجيه بتكريم الجنود والقادة العسكريين ومنحهم مخصصات مالية لقاء ما قاموا به من مهام عظيمة. الأرشيف العثماني، طوب كابي سرايي، دفاتر المهمة ٣٣٣، ص٣٢٠أ. تم الاطلاع على الوثيقة من كتاب: بيات، فاضل، البلاد العربية في الوثائق العثمانية، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، اسطنبول،٢٠١٥م، ط٢، ج٢، ص٢٨٩-٢٩٢. نقلا عن الأرشيف.

[٦] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق، ص ١٠٦-١٠٨.

وبموجب الصلح دخل المطهر في طاعة العثمانيين على أن تكون الخطبة والسكة باسم السلطان العثماني، مقابل احتفاظه بأملاكه الخاصة ماعدا مدينة الطويلة[١]، ويعتبر صلح مؤقت كونه لم ينظم العلاقات العثمانية اليمنية تنظيما نهائيا[٢]، بل كان أشبه بخطة تسمح للطرفين بحفظ ماء الوجه إن صح التعبير، بعد أن كانا في أمس الحاجة إليه، فأوزدمير باشا يرغب في ترتيب أوضاعه والتفرغ لفتح باقي المناطق التي لم تدخل بعد تحت النفوذ العثماني، أما المطهر فهو الأخر يحتاج إلى فترة هدوء ليعيد ترتيب أوضاعه وإرجاع بعض المناطق التي كانت قد خرجت عن سيطرته أثناء صراعه مع العثمانيين، بالإضافة إلى إعادة ترتيب علاقاته بأخوته بعد أن كانت قد بلغت من التوتر مبلغا كبيرا، أما الباشا مصطفى فهو الأخر كان يسعى للحلول السلمية والمكاسب السياسية بدون إراقة الدماء، ويبدوا انه كان يطمح إلى ذلك لكي يظهر أمام البلاط السلطاني انه رجل المرحلة، وأن باستطاعته إخماد الفتن في اليمن بالطرق السلمية، اذا ما علمنا أن اليمن كانت اكثر ولاية عثمانية تعاني من اضطرابات وعصيانات مستمرة.

وبعد عقد الصلح عاد مصطفى باشا النشار إلى إسطنبول، لتنتهي مهمة حملته، بينما اوزدمير باشا ذهب لاستكمال السيطرة على بعض المناطق في اليمن الأسفل والتهائم[٣]، أما المطهر فركز جهوده لاستعادة نفوذه على بعض المناطق التي كانت قد خرجت عن سيطرته أثناء صراعه السابق مع العثمانيين[٤]. وتذكر بعض المصادر أن مصطفى باشا النشار عند عودته إلى إسطنبول عرض للمطهر عند السلطان عرضا قويا، نفى فيه خروجه وعصيانه على الدولة العثمانية[٥].

وكيفما كان الأمر فبالرغم من أن حملة مصطفى باشا النشار على اليمن عام ١٥٥١م جاءت بصلاحيات ومقومات نجاح لم تكن لكثير من الحملات الأخرى، إلا أنها أخفقت في أداء ما أوكل إليها، وقد أرجع المؤرخون

---

[١] الطويلة: بلدة مشهورة قريبة من كوكبان، حاليا أحد مديريات محافظة المحويت، تقع شمال غرب مدينة صنعاء، على بعد ١٢٧كم تقريبا، تتميز بفنها المعماري وحصونها المرتفعة المطلة على المدينة. العروسي، محمد علي، الموسوعة اليمنية، مادة الطويلة، مؤسسة العفيف، صنعاء، ط٢، ٢٠٠٦م، ص١٩٤٤-١٩٤٥.

[٢] للمزيد: انظر سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق، ص٢٠٥-٢٠٦.

[٣] شرف الدين، عيسى بن لطف الله، روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح، تحقيق: إبراهيم بن أحمد المقحفي، ط١، مركز عبادي للنشر، صنعاء، ٢٠٠٣م، ص١٤٨.

[٤] يحيى ابن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٧١٢.

[٥] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق، ص ١٠٨.

ذلك الفشل إلى عاملين أساسيين، الأول تمثل في صمود اليمنيين وقدرتهم على الحرب وتحمل المشاق، وقد ساعدهم في ذلك تضاريس اليمن الجبلية الوعرة التي يصعب اختراقها في كثير من الأحيان[١]، أما العامل الثاني فهو عامل خاص بالعثمانيين، ويتمثل في الصراع الداخلي الخفي والجلي الذي حدث بين قائد الحملة مصطفى النشار وبين والي اليمن آنذاك أوزدمير باشا.

مقومات نجاح الحملة

منذ انطلاق الحملة من مصر وهي تحمل مقومات نجاح يمكن من خلالها أن تحقيق الكثير من المكاسب السياسية والعسكرية، فمن حيث العدد والعدة كانت الحملة تتكون من حوالي ٤٠٠٠ فرد ما بين فارس وراجل، الأمر الذي يشكل عامل قوة، خصوصا إذا ما قسناه بموازين ذلك الزمن، وكان باستطاعة العثمانيين تحقيق الكثير من المكاسب العسكرية والسياسية، وعدم الوقوف عند الصلح مع المطهر. ومن مقومات وعوامل نجاح الحملة أيضا، قيادة مصطفى باشا النشار لها، فقد كان قائد ذو تجربة وخبرة بالشؤون السياسية والعسكرية، وله باع طويل في خدمة الدولة العثمانية، فقد سبق له وأن شارك في العديد من الحروب التي خاضتها، بما فيها حروبها في بلاد الشام ومصر في العقد الثاني من القرن السادس عشر، كما كان من القادة العثمانيين القلائل الذين يتمتعون بمعرفة نوعا ما بشؤون اليمن وأحوالها الجغرافية والاجتماعية، كونه كان والي سابق لها.

مثلت النجاحات التي سبق وان حققها العثمانيين في اليمن قبل مجيء الحملة مقوم نجاح أساسي لها، فقبل مجيء الحملة بحوالي ثلاث سنوات كانت قد سقطت صنعاء بيد العثمانيين، وأخذ أويس باشا وأوزدمير باشا بالتوسع في مناطق اليمن الوسطى والشمالية، ولهذا فمن الملاحظ انه لم يكن منتظر من الحملة منذ وصولها الالتحام في معارك حربية بقدر ما هو مطلوب منها المحافظة على المكاسب التي سبق وأن تم تحقيقها، على خلاف الحملات الأخرى التي كانت تهدف إلى إعادة السيطرة العثمانية الموشكة على الأفول.

[١] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق، ص٢٠٤. للمزيد حول مقاومة اليمنيين للعثمانيين في القرن السادس عشر، ودور الطبيعة الجغرافية والبشرية لليمن في تصعيب الوضع على العثمانيين انظر: نصر، علي أحمد، المقاومة اليمنية ضد العثمانيين في القرن السادس عشر الميلادي دراسة تاريخية في الأسباب، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية – المجلة العربية للعلوم ونشر الأبحاث، غزة، العدد الخامس، المجلد الثالث، مايو ٢٠١٩م، ص٤٩-٦١.

ومن مقومات النجاح الأخرى للحملة، الصلاحيات الكبيرة التي مُنحت للقائد مصطفى باشا النشار، على خلاف أغلب الحملات العثمانية على اليمن، حيث كان يتم توجه قائد أي حملة بضرورة الانطواء تحت لواء وأوامر والي اليمن منذ وصوله إليها، لكن الباشا مصطفى وصل إلى اليمن بشكل مغاير، حيث منحة له صلاحيات كبيرة، من ضمنها حرية التفاوض المباشر مع المطهر دون الرجوع إلى والي اليمن آنذاك اوزدمير باشا، الأمر الذي يرى اغلب المؤرخون انه سبب رئيسي في فشل الحملة، كونه العامل الأساسي في الخلاف الذي حدث بين مصطفى باشا واوزدمير باشا، وتجدر الإشارة إلى أن قرب مصطفى باشا من والي مصر آنذاك داوود باشا هومن عزز موقف الباشا مصطفى وجعله يتمتع بتلك الصلاحيات، إذا ما علمنا أن والي مصر هو من كان يدير ملف اليمن أمام الباب العالي آنذاك.

وأخيرا نستطيع القول أن ثمة خلافات بين المطهر ابن شرف الدين وبعض أخوته كانت أحد مقومات نحاج حملة مصطفى باشا النشار، فمن المؤكد أن المطهر لم يكن آنذاك في أفضل أحواله، فكان يعاني من مشاكل داخلية مع بعض إخوانه، والدليل انه ما أن تمكن من عقد الصلح مع العثمانيين سنة ١٥٥٢م حتى بادر بالاتصال بإخوانه لتسوية بعض الخلافات معهم، كما كان يعاني من مشاكل خارجية كذلك، تمثلت في صراعة مع العثمانيين الذين أخذوا في التفوق واجتياح اغلب المناطق التابعة له، والتي توجت بسقوط صنعاء بأيديهم عام ١٥٤٧م[١]، ومحاصرته في ثلا وكوكبان.

أسباب إخفاق الحملة

قد يتساءل البعض بما مفاده؛ بما أن الحملة استطاعت أن تدعم موقف اوزدمير باشا في اليمن، وتصل إلى صلح مع المطهر دخل بموجبة في طاعة الدولة العثمانيين على أن تكون الخطبة والسكة باسم السلطان العثماني، فأنها قد حققت أهادفها. وعلى العكس من ذلك، فعند النظر في الخارطة السياسية العامة التي أعقبت الحملة، نجد أن المطهر كان في وضع أفضل، خصوصا بعد عقد الصلح معه، والذي ظهر فيه كند للعثمانيين، بعد أن كان في وضع لا يُحسد عليه، كما نلاحظ أن الحملة انعكست سلبا على شخصية والي اليمن اوزدمير باشا، بدلا من أن تدعم وتعزز موقفه، حيث قللت من هيبته لدى خصومه، خصوصا مع ظهور خلافة مع الباشا مصطفى، وإظهار الأخير منافسته له،

[١] جينكيز، أورهونلو، سياسة الإمبراطورية العثمانية الجنوبية (ولاية الحبشة)، مؤسسة التاريخ التركي للنشر، انقره، ١٩٩٦م، ص٣٤. الكتاب باللغة التركية.

واتصاله بالمطهر دون الرجوع إليه. كما نلاحظ كذلك أن الأحداث التي أعقبت الحملة مالت إلى التكافؤ نوعا ما على المستوى السياسي والعسكري، خصوصا بعد أن سمحت شروط الصلح للمطهر بالتحرك وحلحلت ملفاته السياسية والعسكرية في مناطق نفوذه التي كانت قد آلت إلى التراجع. ولهذا فنستطيع القول أن الحملة أخفقت في تحقيق منظومة الأهداف التي رُسمت لها، ويرجع ذلك برأينا إلى مجموعة من العوامل لعل أهمها؛ اختلاف رؤى وسياسيات كل من مصطفى باشا النشار واوزدمير باشا، فكان الأخير يهدف إلى القضاء على المطهر عن طريق الضغط العسكري عليه في مناطق نفوذه، بينما مصطفى باشا سلك طريق التفاوض وتحقيق المكاسب بالطرق السلمية. وقد ظهرت بوادر الخلاف بين القائدين فور وصول مصطفى باشا إلى اليمن، وذلك لما قام به من أمور يُفهم منها إظهار الندية لاوزدمير باشا، فأحاط نفسه بمظاهر الأبهة والعظمة حتى شك بعض الأمراء العثمانيين انه الوالي الجديد لليمن، وأشاع فور وصوله انه جاء لغرض الصلح والسلام مع المطهر بن شرف الدين، الذي كان حينها في صراع عسكري مع اوزدمير باشا، بل ويُذكَر أن مصطفى باشا كان يصور أن اوزدمير باشا هو من يسعى إلى اشتداد حِدة الحرب في اليمن[1].

ومن الأسباب التي أفضت إلى عدم تحقيق الحملة لأهدافها، اتخاذ مصطفى باشا النشار مواقف فردية دون الرجوع والتشاور مع اوزدمير باشا باعتباره والي اليمن وأدرى بأمورها، وكان أول تلك المواقف اتصاله -فور وصوله تعز- بالمطهر يدعوه إلى عقد صلح معه، الأمر الذي استغله المطهر ورحب به، ولا شك أن مثل هذا الاتصال قد أثارت حفيظة اوزدمير باشا، الذي عمل بدوره على محاولة إفشال أي الاتصال بين الطرفين، وحال دون وصول بعض الرسل إلى المطهر، واعتبر ذلك تعدي على صلاحياته، وعمل غير مرغوب فيه من قبل مصطفى باشا. ونرى أن ما قام به الباشا مصطفى من مواقف فردية كان خطأ استراتيجي، انعكس سلبا على تحقيق أهداف حملته.

وفي الأخير يجب الإشارة إلى أن أحد أهم الأسباب التي حالت دون تحقيق الحملة لمنظومة أهدافها، تمثل في شخصية المطهر القوية، ودهائه السياسي والحرب، فقد استطاع مقارعة العثمانيين ومحاربتهم في كثير من الأوقات، وظهر كند قوي لهم في كثير من الصراعات السياسية والدبلوماسية، وكان دائما ما يستغل الخلاف بين الأمراء والقادة العثمانيين ويوظفه لصالحه، وقد استغل الخلافات التي نشبت بين مصطفى باشا واوزدمير باشا، حتى

[1] سالم، الفتح العثماني، مرجع سابق، ص٢٠٠-٢٠٢.

أفضت الأمور إلى عقد الصلح معه، الأمر الذي لم يكن يرغب به والي اليمن آنذاك أوزدمير باشا. كما يجب الإشارة إلى صمود اليمنيين في كثير من مراحل الصراع مع العثمانيين، وقدرتهم على تحمل مشاق الحروب، وتشكيلهم في كثير من الأحيان عائق كبير أمام أي تقدم للعثمانيين.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر والمراجع العربية:

- الأكوع، القاضي إسماعيل بن علي، أسرار مقاومة اليمن للحكم العثماني، ورقة مقدمة إلى المؤتمر العالمي الرابع للدراسات العثمانية، زاغوان – تونس، ٢٦-٣٠ يناير ١٩٩٠م.
- الأمير، امة الغفور عبد الرحمن، خطاب السلطان سليمان القانوني إلى المطهر بن شرف الدين في اليمن ٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م وجواب المطهر، ورقة بحث مقدمة للمؤتمر الدولي (اليمن في العهد العثماني الأول) جامعة أوشاك تركيا، منشورات جامعة ٩ أيلول-ازمير-تركيا، ٢٠١٦م.
- بيات، فاضل، البلاد العربية في الوثائق العثمانية، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، اسطنبول،٢٠١٥م، ط٢.
- بجوي، إبراهيم أفندي، التاريخ السياسي والعسكري للدولة العثمانية (المعروف بتاريخ بجوي)، ترجمة ناصر عبد الرحيم حسين، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ط١، ٢٠١٥م، ج١. (الكتاب مترجم من الفارسية).
- جانكارلوا كازالي، رياس البحر الهندي عصر الاستكشافات العثمانية، ترجمة: مصطفى قاسم، إصدارات عالم المعرفة، الكويت، أغسطس ٢٠١٨م.
- الخطيب، مصطفى عبد الكريم، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٦م،
- ابن داعر، عبد الله بن صلاح الدين تـ١٠٠٧، الفتوحات المرادية في الجهات اليمانية، مخطوط محفوظ بمكتبة راغب باشا، إسطنبول، برقم ٩٧٩.
- سالم، سيد مصطفى، الفتح العثماني الأول لليمن، القاهرة، دار الأمين، ط٥، ١٩٩٩.
- شرف الدين، عيسى بن لطف الله، روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح، تحقيق: إبراهيم بن أحمد المقحفي، ط١، مركز عبادي للنشر، صنعاء، ٢٠٠٣م.

- محروس، صالح، ولاية مصطفى باشا النشار على اليمن وأثارها ١٥٥١-١٥٥٨م، بحث مقدم إلى المؤتمر الدولي الأول عن اليمن في العهد العثماني الأول، جامعة أوشاك – تركيا، منشورات جامعة ٩ أيلول -ازمير-تركيا، ٢٠١٦م.
- المقحفي، إبراهيم احمد، معجم البلدان والقبائل اليمنية، صنعاء، دار الكلمة، ٢٠٠٢م.
- ألموزعي، شمس الدين عبد الصمد بن إسماعيل، دخول العثمانيين الأول إلى اليمن المسمى الإحسان في دخول مملكة اليمن تحت طل عدالة أل عثمان، تحقيق عبد الله محمد الحبشي، بيروت-لبنان، منشورات المدينة، ط١، ١٩٨٦م.
- الموسوعة اليمنية، مؤسسة العفيف، صنعاء، ط٢، ٢٠٠٦م.
- نصر، علي أحمد، المقاومة اليمنية ضد العثمانيين في القرن السادس عشر الميلادي دراسة تاريخية في الأسباب، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية – المجلة العربية للعلوم ونشر الأبحاث، غزة، العدد الخامس، المجلد الثالث، مايو ٢٠١٩م.
- النهروالي، قطب الدين محمد بن احمد ت ٩٩٠، غزوات الجراكسة والأتراك في جنوب الجزيرة العربية المسمى (البرق اليماني في الفتح العثماني)، الرياض، منشورات دار اليمامة، ط١، ١٩٦٧م.

المصادر والمراجع التركية

-Âtif Paşa, Yemen Tarihi, Dar'ül-Saâdat Yayınevi, İstanbul, H.1326, C.1.
-Baştürk, Sadettin, *Yemen'de Osmanlı-Zeydî Mücadelelerinin Sebep ve Sonuçları*, Orta Doğu Araştırmaları Dergisi, Fırat Üniversitesi, Sayı.1, C. IX, Ocak 2011, ss 11-21.
- İvanov, Nikolay*, Osmanlı'nın Arap Ülkelerini Fethi 1516-1574*, Türk Tarih Kurumu, Ankara, 2013.
-Orhanlu, Cengiz*, Osmanlı İmparatorluğu'nun Güney Siyaset Habeş Eyaleti*, Türk Tarih Kurumu Yayınları, Ankara, 1996.
-Yavuz, Hulusi. *Yemen'de Osmanlı İdaresi ve Rumuzi Tarihi I-II*, Türk Tarih Kurumu Yayınları, Ankara, 2003.